

معاني التوبة في القرآن الكريم



www.balagh.com

(وَأُرْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ* هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِرِكَالٍ أَوْ وَّابٍ حَفِيظٍ* مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ* ادْخُلُوا هَذَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ) (ق/ 34-31). إنَّ اﷻ سبحانه في هذه الآية الشريفة يبين معنى قوله: (لِرِكَالٍ أَوْ وَّابٍ)، فهو الذي يخشى اﷻ في عذابه ونار جهنم مع أنَّهُ لم يرها فهي غائبة عنه، فيأتي اﷻ بقلب منيب يرجع إليه في كلِّ أمره وطول حياته، حتى أصبح الرجوع إلى اﷻ عنده ملكة راسخة، تتجلى آثارها عند الموت، فيدخل الجنة بسلام آمن، ليخلد فيها متنعمًا بلا لغوب، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذُّ الأعين، وما لم يخطر على قلب البشر. فمن أذنب فليرجع سريعًا إلى ربِّه، ويتوب ممَّا فعل ولا يعود، فإنَّ اﷻ هو التواب الرحيم يقبل التوبة من عبده المنيب الخائف، ومَن تاب اﷻ عليه فإنَّه يدخل الجنة بسلام خالدًا فيها أبد الأبد. وهذه بشرى تفرِّح قلوب المؤمنين والملتقين، وتهوِّن عليهم مصائب الدنيا وهوانها، وتسهِّل عليهم مشاكلها وصعابها. قال الرسول الأكرم محمد (ص): إنَّ اﷻ آنية في الأرض فأحبُّها إلى اﷻ ما صفا منها ورقٌ وصلب، هي القلوب، فأمَّا ما رِقٌّ منها: فالرفقة على الإخوان، وأمَّا ما صلب منها: فقول الرجل في الحقِّ لا يخاف في اﷻ لومة لائم، وأمَّا ما صفا ما صفت من الذنوب، والصفاء ابتداءً بأن لا يذنب أولى وأبلغ من الصفاء بعد الذنوب، وذلك بالتوبة والإنابة إلى اﷻ سبحانه، وإن كان عزٌّ وجلٌّ يغفر الذنوب جميعًا إلا ما أشرك به، فإنَّه ستار العيوب غفَّار الذنوب، والغفَّار صيغة مبالغة تعني أنَّ العبد مهما أذنب فإنَّه لو رجع وتاب واستغفر فإنَّ اﷻ هو الغفَّار الرحيم، وإنَّه كريم الصفح، بمعنى أنَّه يغفر الذنوب، بل يمحي كلَّ الآثار ويكون الإنسان كيوم ولدته أمُّه، له قلب طاهر سليم، وصفحة بيضاء، فعليه أن يستأنف العمل وأن يملئها بالصالحات. لا يخفى أنَّ القصد إلى اﷻ تعالى بالقلوب أبلغ وأشدُّ من القصد إليه باليد، وحركات القلوب أبلغ من حركات الأعمال، فإنَّه سبحانه وتعالى ينظر إلى القلوب لا إلى الصور والأموال، فعلينا أن لا نغفل عن ذكره، فإنَّه من غفل قيض اﷻ له شيطانًا يغيِّره ويضلُّه ويغويه، ومَن نسي اﷻ نسي نفسه، فيشتغل بغير الذي من أجله خُلِق، أي بغير العبادة وبغير اﷻ فيصاب بالخفض والهوان والتوقُّف عن المسير إلى اﷻ سبحانه، وإنَّما يفتح القلب لبركات اﷻ لو رضي عن اﷻ، وإنَّما يرفع في أعلى عليين لو ذكر اﷻ: (في بَيُّوتِ أَدْنَى اللَّاهِ أَنْ تَرْفَعِ وَيَذْكُرَ فِيهَا اسْمُهُ) (النُّور/ 36). وكما في علم النحو إعراب وبناء، والإعراب رفع وفتح وخفض ووقف، فكذلك القلوب كما ورد عن الإمام الصادق (ع) قال: إعراب القلوب على أربعة أنواع: رفع وفتح وخفض ووقف، فرفع القلب في ذكر اﷻ، وفتح القلب في الرضا عن اﷻ، وخفض القلب في الاشتغال بغير اﷻ، ووقف القلب في الغفلة عن اﷻ. فهلمَّ أيُّها الأصدقاء، يا إخوان الصفا إلى العلم النافع والعمل الصالح، ولنعرِّف الهدف في حياتنا ومماتنا، ونعرِّف المبدأ والمعاد، فإنَّ كلَّ إنسان لا يخلو من أهداف في حياته الفردية والاجتماعية، وأنَّ اﷻ يشير إلى ذلك في قوله تعالى: (وَلِرِكَالٍ وَجْهَةٌ هُوَ مَوْلَاهَا) (البقرة/ 148). فلكلِّ واحد - المسلم والكافر، الرجل والمرأة، الصغير والكبير، الحرِّ والعبد - وجهة وأهداف، وهو المسؤول عنها فهو مولاهُها. ثمَّ

حياته لها مبدأ ومنتهى والمبدأ الأول هو □ سبحانه والمعاد إليه، فإنزلاً □ وإنزلاً إليه راجعون، فهو الأول وهو الآخر، وقد جعل للإنسان صراطاً مستقيماً يوصل الإنسان لو سار فيه إلى الملك المقدر، وإلى جنّة النعيم في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ونصب له في هذا الصراط الأضوية الوهّاجة والشموع المضيئة وهم الأنبياء والأوصياء وورثتهم العلماء الصلحاء، كما علّمه أن يكون له الهمة العالية وأودع فيه ذلك، فلا يكتفي بالأدنى ولا تغرّه الدنيا الدنيّة، فإنّها دار ممرّ وليس دار مستقرّ، عليه أن يتزوّد منها بخير الزاد، وخير الزاد التقوى، فعلمه من خلال أدعية أنبياءه ورسله أن يطلب من □ أسنى المطالب وأعلاها سواء كانت دنيوية أو أخروية مادية أو معنوية: فهذا إبراهيم الخليل يطلب من ربه أن يكون للمتّقين إماماً: (رَبِّ انْدَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) (الفرقان/ 74). وفي طلب الدنيا يطلب سليمان من ربه قائلاً: (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْدِبْغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي) (ص/ 35). وهاتان الآيتان تعلّمنا أنّّه كيف نكون أصحاب همة عالية، ولا نرضى بالدون والشيء الرديء، ففي المطالب الدنيوية نطلب من □ المُلْك، وفي المعنوية نطلب منه أن نكون إماماً للمتّقين، بمعنى أن المتّقين بجانب والداعي بجانب، له ما لكل المتّقين، وهذا غاية المعنويات من الأعمال الصالحة، كما أن طلب الملك غاية الماديات من الدنيا، ولكن هناك شيئاً عظيماً مهما بلغ الإنسان فيه، فإنّه لم يأت منه إلا القليل، وهو العلم: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (الإسراء/ 85). □ سبحانه يأمر نبيه الأكرم أن يدعوه بقوله: (رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) (طه/ 114). وهذا يعني أن العلم لا نهاية له، فإنّ العلم هو □ سبحانه، وأن □ واجب الوجود مستجمع الصفات الكمالية بلا حد ولا نهاية، وأنّ العلم من الصفات الذاتية، فهي عين الذات كما هو الحقّ، خلافاً لمن يقول بزيادته على الذات، فإنّه يلزمه تعدّد القدماء، كما هو ثابت في محلّه. فالإنسان إذا كان هدفه □ وله مثل هذه الهمم الراقية والبلیغة، لا يشبع من طلب العلم، ولا يفتر من عبادة ربه، فينيب إليه بقلب منيب، ويهتدي إليه بكتب □ ورسله، ويدخل الطرق والسبل الإلهية التي تنتهي إلى الصراط المستقيم ويجاهد في □ جلّ جلاله: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) (العنكبوت/ 69).